الأديرة والإسهام الرَّهباني في البحث العلمي

الأنافورا في يوم الأربعاء ٢٦ يونيو ٢٠١٣م

سيِّدي قداسة البابا تاوضروس الثَّاني بابا الإسكندريَّة وبطريرك الكرازة المرقسيَّة.
آبائي المطارنة والأساقفة والكهنة المجتمعين معنا.
الحضور الكرام.

البحثُ العلمي في الكنيسة المسيحيَّة، له سماتُه الخاصة وفرادتُه. لأنه أيُّ علم يمكنه أن يبحث فيما عمَلَه الله من أجلنا قبل تأسيس العالم، كما شرحه القدِّيس بولس الرَّسول في رسائله؟ إذ يقول: «كلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانيَّة المقنع، بل ببُرهان الرُّوح والقوَّة، لكي لا يكون إيمانُكم بحكمة النَّاس، بل بقوَّة الله ... نتكلَّمُ بحكمةِ الله في سرٍّ. الحكمةِ المكتومة، التي سبق الله فعيَّنها قبل الدُّهور، لمجدنا» (١كورنثوس ٢:٤-٧). فأيُّ بحث يستطيع أن يستوعب كمالَ فكرِ الله في تبني الطَّبيعة الإلهيَّة، للطَّبيعة البشريَّة التُّرابيَّة؟

لذلك، فالبحثُ العلمي المسيحي لا يبحث فيما هو جديد، بل يسعى لاستعلان معرفة سرّ المسيح والكنيسة. أي سرّ ما صنعه المسيح من أجلنا، في التَّجسُّد، والفداء، والميلاد الجديد من الله. وفي المقابل، سرّ ما قدَّمته الكنيسة عرفاناً بصنيع المسيح معها، من صلواتٍ وتسابيحَ وطقوسٍ وألحانٍ وأيقونات ... الخ. وكلَّما كان الحبُّ مُخلِصاً للمسيح والكنيسة، كُلَّما انكشف أمام الإنسان جانباً أكبر من هذا السِّر العظيم. ومع ذلك، فسوف يظلُّ البحثُ العلمي في المسيحيَّة، قاصراً، لأنه يبحث في أسرار لا يمكن بلوغ كمالِها، وإلاَّ ما بقيت الأسرار أسراراً.

فالأمر ليس اجتهاداً عقليًّا، بل نعمةً موهوبة من الله، يشرحها القدِّيس بولس الرَّسول بقوله: «... ذاكراً إيَّاكم في صلواتي، **كي يعطيكم** إلهُ ربِّنا يسوعَ المسيح أبو المجد، **روحَ الحكمة والإعلانِ في معرفته**، مستنيرةً عيونُ أذهانِكم τῆς καρδίας ὑμῶν (أي قلوبِكم)، لتعلموا ما هو رجاءُ دعوته (أي: لتعلموا ما في دعوته من رجاء)، وما هو غنى مجدِ ميراثه في القدِّيسين (أي: الذي جعله للقدِّيسين)، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا (أي: المُعلنة لنا) نحن المؤمنين، حسب عمل شدَّة قوَّته الذي عمله في المسيح ... الخ» (أفسس ١:١٦-٢٠).

انظروا إذاً أهميَّة وعُمق واقتدار صلاة القدِّيس بولس الرَّسول من أجلنا، لأنه يطلب من أجلنا ما قد ناله هو فعلاً من قبل، إذ يقول: «إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمةِ الله المعطاة لي لأجلكم، أنه **بإعلان عرَّفني بالسِّر**. كما سبقتُ فكتبتُ بالإيجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه، تقدرون أن تفهموا درايتي بسرِّ المسيح» (أفسس ٣:٢-٤).

فالوسيلة الوحيدة التي تتناسب مع معرفة الله ومعرفة أسراره، هي أن يهب لمن يريد، روحَ الحكمة، واستعلانِ معرفته (وليس معرفته فحسب) باستنارة قلبيَّة. ذلك «لأنَّ أمورَ الله لا يعرفُها أحدٌ إلاَّ روحُ الله. ونحن لم نأخذ روحَ العالم، بل الرُّوحَ الذي من الله، لنعرفَ الأشياءَ الموهوبة لنا من الله، التي نتكلَّم بها أيضاً، لا بأقوال تُعلِّمُها حكمةٌ إنسانيَّة، بل بما يُعلِّمُه الرُّوح القُدُس ... لأنه من عَرَفَ فكرَ الرَّب فيُعلِّمَه، وأمَّا نحن فلنا فكرُ المسيح» (١كورنثوس ٢:١١- ١٦).

وطبقاً للرؤية السَّابق شرحها، فإنَّ البحث العلمي الدِّيني، هو البحث في كلِّ مناحي الحياة الدِّينيَّة، اللاَّهوتيَّة منها والكنسيَّة. أي البحث في كافة علوم اللاَّهوت والتَّاريخ والآثار والقانون الكنسي والأسرار والألحان والفنون وغيرها، ولكن بنعمة من الله، وبمنهج يرتكز في الأساس على تقليد الكنيسة، وتعليم آبائها.

وإن ركَّزنا حديثنا عن الإسهام الرَّهباني في البحث العلمي، فأوردُ فيما يلي نماذج من ذلك. فرسمُ الأيقونات بكافة أنواعها وطرائقها، هو فنٌّ نبع في الأصل من الأديرة، وموهبة لم تعط للجميع. ومع ذلك، فإنَّ دراسة صفات وخصائص الأيقونة القبطيَّة على سبيل المثال، هو من الأهميَّة بمكان، لكي يرتكز رسم الأيقونة على أساس علمي، ولكي تحتفظ كلُّ كنيسة بهويَّتها الفنيَّة. فسمات الأيقونة القبطيَّة، غير سمات الأيقونة البيزنطيَّة، غير سمات الأيقونة الأرمينيَّة، وهكذا.

فإن توفَّر للموهوبين من الرُّهبان في هذا الفن، دراسات علميَّة مع تدريب عملي، يصبح هذا العمل مجالاً خصباً لقضاء الرَّاهب وقتاً هادئاً، يستطيع به أن يمارس العمل والصَّلاة في آن معاً.

ومن الإسهامات الرَّهبانيَّة في البحث العلمي أيضاً، دراسة كيفيَّة صيانة المخطوطات وترميمها. فهذا عمل رهباني بالدَّرجة الأولى، إذ يحتاج إلى وقت كبير، وهو ما يُتاح للرَّاهب في ديره، مع توفَّر ممارسة الصَّلوات الصَّامتة في أثناء تأديته، طبقاً لأصول العمل الرَّهباني.

وهذان العملان السَّابق ذكرهما على سبيل المثال، لا يحتاجان من الرَّاهب سوى الحصول على دراسة قصيرة الأمد، ينطلق بعدها في عمل يمتد سنين طويلة، ليخدم به الكنيسة.

وهناك عمل آخر يناسب الرَّاهب في ديره، وهو تحقيق المخطوطات، بأسلوب علمي، قبل محاولة نقل نصوصها إلى ورقات مطبوعة. فهو عمل يحتاج من الرَّاهب إلى دراسة كيفيَّة تحقيق النُّصوص ونشرها، وهو مجال علمي، قلَّما انتبهنا إليه. إلى جانب الإلمام باللُّغة العربيَّة وإجادتها إجادة تامة، إن كانت المخطوطات التي يقوم الرَّاهب بتحقيقها مكتوبة باللُّغة العربيَّة فقط. وهو مجال واسع يشمل التُّراث العربي المسيحي كلَّه، والذي يمتد من القرن العاشر الميلادي أو قبله بقليل، وحتى أوائل القرن العشرين.

وخلافاً لما سبق ذكره، فإنَّ أيَّ أبحاث علميَّة دينيَّة أُخرى، ينكب الرَّاهب على البحث فيها، كلٌّ بحسب هوايته، تحتاج منه بادئ ذي بدء، إلى إتقان بعض أو كلِّ ما يلي:

- اللُّغة اليونانيَّة الكلاسيكيَّة، وهي لغة الكتاب المقدَّس.
- اللُّغة القبطيَّة، بلهجتَيها الصَّعيديَّة والبحيريَّة أو إحداهما.
- اللُّغة العربيَّة.
- واحدة من اللُّغات الأوربيَّة الحيَّة، مثل الألمانيَّة أو الفرنسيَّة أو الإنجليزيَّة.

ومن هنا، كانت أهميَّة توفير دراسة هذه اللُّغات، بواسطة أساتذة متخصِّصين، ولاسيَّما للرَّاهب المبتدئ، حتى تعينه على الجلوس في قلاَّيته، عندما يتقدَّم به السِّن، فيكون مثمراً فيها.

ثمَّ تأتي أهميَّة دراسة كتابات آباء الكنيسة. والبحث في مصادرنا الكنسيَّة القديمة، والتي تذخر بها مخطوطاتنا المنتشرة في مكتبات مصر والعالم، ولكن بأسلوب علمي، كما سبق أن أشرت.

وعند هذا الحد، يمكن للرُّهبان في أديرتهم الإسهام العلمي في مجالات واسعة، منها على سبيل المثال:

- تحقيق كتاب الأجبية، سواء من جهة المزامير، أو قطع الصَّلوات الخاصة بكلِّ ساعة من السَّواعي، وأيضاً صلوات التَّحليل ... الخ. مع ملحق في نهاية الأجبية، بباقي المزامير الأُخرى التي لم ترد في سواعي الصَّلاة، وهي تبلغ إلى نصف عدد المزامير تقريباً.
- تحقيق كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة، ولاسيَّما الأبصلموديَّة السَّنويَّة. مع الإشارة إلى الكلمات اليونانيَّة الواردة بها، وما تحمله من معان تُثري النَّص اللِّيتورجي.
- تحقيق نصوص القراءات اليوميَّة في كتاب القطمارُس، الذي يخدم قراءات السُّنَّة اللِّيتورجيَّة كلِّها.

- تحقيق كتاب الخولاجي المقدَّس، والعودة به إلى الأصول اللِّيتورجيَّة القديمة.
- تحقيق كافة نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة، وهو عمل سبقتنا إليه الكنائس الأُخرى.
- تحقيق نصوص كتابات آباء الكنيسة، بعد ترجمتها من اللُّغات المختلفة سواء اليونانيَّة أو القبطيَّة بلهجتيها الصَّعيديَّة والبحيريَّة، ولاسيَّما كتابات آباء الرَّهبنة.
- تحقيق سيَر قديسي الكنيسة، ولاسيَّما قديسي الرَّهبنة، وبالأولى كتاب بستان الرُّهبان، وأيضاً كتاب السِّنكسار.

وبخصوص هذا البند الأخير أسوق على سبيل المثال، ما يذكره بستان الرُّهبان، عن القدِّيس يوحنَّا القصير. فيقول البستان:

''قيل عن القدِّيس يوحنَّا القصير: إنه مضى إلى شيخٍ تبايسي[1] كان مقيماً في البريَّةِ، فتتلمذ له. وحدث أنَّ معلِّمَه دفع إليه غُصناً يابساً، وأمره أن يغرسَه ويسقيه كلَّ يومٍ بجرةِ ماء، وكان الماءُ بعيداً عنهما، فكان يمضي في العشيَّة ويجيءُ في الغدِ ...''.

فعند هذا الحدِّ من هذه القصَّة، نعرف أنَّ المقصود منها هو تعليم القدِّيس يوحنَّا القصير فضيلة الطَّاعة، كواحدة من النُّذور الرَّهبانيَّة الثَّلاث التي ينذرها طالب الرَّهبنة، وهي الطَّاعة والعفَّة والفقر الاختياري.

أمَّا بقيَّة القصَّة التي تقول: ''وبعد ثلاث سنين اخضرَّ الغُصنُ وأعطى ثمرةً. فجاء بها إلى الشَّيخِ، فأخذها الشَّيخُ وجاء بها إلى الكنيسةِ وقال للإخوةِ: «خذوا كُلوا من ثمرةِ الطَّاعةِ''، فهي تحتاج إلى توثيق، لأنها إضافة على الأصل.

وهكذا في كلِّ سيَر القدِّيسين الأُخرى، والتي طال بعضُها إضافات من النُّسَّاخ عبر السِّنين، يلزم تداركها، حتى يعود مفهوم المعجزة، وعلاقتها بالقداسة، إلى وضعه الكنسي الأصيل.

والفصلان الأوَّل والثَّاني من الكتاب الثَّامن من المراسيم الرَّسوليَّة، يشرحان هذا الأمر. فنقرأ: ''أيُّ واحد من الذين يعملون آيات وعجائب، لا يدين أحد المؤمنين الآخرين، ممَّن لم يُستأهل لذلك. لأنَّ مواهب الله متنوِّعة، تلك التي تُعطى منه بالمسيح. فأنتَ قد نلتَ هذه، وذاك قد نال شيئاً آخر، ككلام حكمة، أو علم، أو تمييز أرواح، أو معرفة ما سوف يكون، أو كلام تعليم،

---

١ – تبايسي من الكلمة اليونانيَّة θηβαῖον ومعناها من مدينة طيبة.
Cf. Amélineau, E., *La géographie de l'Égypte à l'époque copte*, 1973, p. 234-235 .

أو صبر، أو عفَّة حقيقيَّة'' (المراسيم الرَّسوليَّة ٨:١:١٢). وأيضاً: ''ليس كلٌّ من يتنبأ، تقيًّا[٢]. وليس كلٌّ من يُخرج الشياطين، قدِّيساً'' (المراسيم الرَّسوليَّة ٨:٢:٢).

وإنَّ ما يلزم الانتباه إليه، هو أنَّ أي عمل يقوم به الرَّاهب في ديره، يلزم أن يكون تحت مشورة الشُّيوخ وتدبيرهم. لأنَّ الرَّاهب دخل الدَّير لكي يخلُص، وليس لكي يعمل أبحاثاً علميَّة.

فيقول بستان الرُّهبان في ذلك: ''... إن كان مع غروس الفردوس نَبَتَ عودُ معرفةِ الشَّر والخيرِ، فلا عَجَب إن نبتت مع المناقبِ الشَّريفةِ، أثمارٌ رديئةٌ تولِّد الموتَ. فيليق بالمفرِز (أي المدبِّر) أن يكونَ كلَّ حين حذراً، لأنه مراراً كثيرةً تصيرُ الفضائلُ الجليلةُ أسباباً لسقطاتٍ عظيمةٍ، متى لم يحكمها مُحَكِّم بنيةٍ متَّضعة ذات إفراز. وعلى ما كُتب: «رأيتُ صدِّيقاً هالكاً ببرهِ»، مع أنَّ البرَّ لم يكن سببَ الهلاكِ، بل العجرفة''.

ويقول البُستان أيضاً: ''... إذا صلَّيتَ فقُل: يا ربُّ أنت العارف بكلِّ الأشياءِ ... علِّمني كيف أبدأُ، أنت قد جئتَ بي إلى ههنا، فعلِّمني كيف أخلصُ»''.

ومن النِّعَم التي يعطيها الرَّب للرَّاهب في ديره، أن يعينه على الجلوس في قلاَّيته. ففيها سوف يتعلَّم كلَّ شيء. ''قيل: أضاف أنبا موسى أخاً فطلب منه كلمةً. فقال له: «امض واجلس في قلاَّيتك، والقلاَّية سوف تعلِّمك كلَّ شيء»''.

* * *

٢- ὅσιος = تقي - ورع - مُخلِص - متديِّن - حيُّ الضَّمير.
Cf. Liddell & Scott, *Greek - English Lexicon*, Oxford, 1889, p. 572.